حضارة العرب

إليك ايها القارىء سِفراً حديثاً موجزاً تبدو لك من تضاعيف سطوره حضارة العرب بافضالهم الجميلة وآثارهم الجليلة . اولئك القوم الذين لبسوا من مجد العروبة ثوباً سندسيّ الطراز واظهروا من كرم محتدهم وسؤدد منصبهم وسداد رأيهم وفضيلة مبادئهم ونزاهة سياستهم ما سطرته لهم التواريخ بمداد الفخر والاعجاب .

فبعد ان كانت البداوة غالبة عليهم يعيشون فيها قبائل متفرقة في البراري والقفار ويسكنون الخيام المثبّتة بالاوتاد والاطناب محتملين وراء مواشيهم حَمَارّة القيظ وصَبَارّة البرد يتغنّون بما توحيه لهم سماؤهم الصافية من الاشعار الطبيعيّة التي كانت ديوانَ علومهم وحِكَمهم والأفكار السامية التي كانت تدور بخَلَدِهم ، وكانوا على جانبٍ عظيمٍ من الاخلاق الحسنة والعادات الطيّبة كالسخاء والكرَم والعفّة والشجاعة والنجدة والشهامة وحفظ الجوار والعهود والايفاء بالوعود والمحافظة على شرف ناموسهم وعرضهم فكان الموت عندهم اسهل من الفضيحة والعار — فبعد ذلك كله اصبحوا يرتقون مَعارج الحَضارة والمدنيّة

بفضل الاسلام الذي جمع شمل قبائلهم ولمّ شعث افرادهم فتركوا سكنى القفار وقطنوا المدن والامصار وعمّروا القصور وتمازجوا بالشعوب المجاورة لهم فتبادلوا التجارة معهم ولا سيما بعد فتحهم الممالك فعمر محيطهم وظهر تمدنهم ورقيهم في العلوم والآداب . وسمتْ رغبتهم في اكتساب الفنون والمعارف فأقبلوا عليها بهمّةٍ واجتهاد حتى احرزوها وفازوا بها ونشروها بين الشعوب والممالك التي تحضّرت بحضارتهم وأخذت الرقي والتمدن عنهم . ففاقوا بذلك سواهم تمدناً وقوةً وشهرة .

قال العلامة غوستاف لابون : « قليل من الشعوب مَنْ فاق العرب في التمدن . ولا يوجد شعبٌ واحدٌ بلغ ما بلغه العرب من الرقي العظيم في مثل هذا الوقت القصير فاسّسوا بصائب سياستهم مملكةً من اضخم الممالك التي عرفها التاريخ . ومدّنوا اوروبا بعلومهم وفنونهم وآدابهم . »

« قليلةٌ هي الشعوب التي رفعتها الحَضارة الى مثل هذا المجد . ولا يوجد شعبٌ في العالم كالشعب العربي تظهر فيه بهذا الجَلاء العوامل التي تخلق الممالك ثم ترفعها الى قمة الحَضارة والمجد والعلاء . »

وضعتُ لك هذا الكتاب وذيّلتهُ بفوائد جليلة عن قومٍ ذوي همةٍ عالية هم أصحُّ الناس أفهاماً وأحدّهم أذهاناً . وشعوب

انتظمت حالهم بعد الشتات وتوسعت فتوحاتهم بعد التريّث والابطاء في بقعة شبه الجزيرة العربية الصغيرة ليكون لك سلاحاً ترد به اضاليل مَنْ يبغضونك بلغتك وسيادتها ويحببونك بلغتهم .

فعسى بعد مقاساتي الجهود الطويلة في البحث والتنقيب عن حضارة العرب بآثارها التالدة وجميل مآثرها الخالدة ان اكون قدمت للنشء الحديث من ابناء الضاد خدمةً ادبيّةً يجنون من ورائها كل فائدة ويصادفون بها كل نجاح ورقي .

openkandil.com

في الحضارة

الحضارة في اللغة خلاف البداوة، او الاقامة في الحَضَر، وفي الاصطلاح الانتقال من حالةٍ الى حالةٍ اخرى . فهي اذاً كلمة تنطوي على الثقافة والرقي والعمران والتمدن .

فكل علمٍ وتهذيب فهو « ثقافة » .

وكل تقدم في الآداب والعلوم والمعارف فهو « رقي » .

وكل نجاح في الاعمال وتحسين وتقدم في مشاريع البلاد الادارية والاقتصادية والزراعية فهو « عمران » .

وكل تحوّل من حالة الهمجيّة والجهل الى حالة الظرف والمعرفة او كل انتقال من سكنى الاخبية والخيام الى سكنى القرى والمدن او التخلّق باخلاق اهلها فهو « تمدّن » .

فلكي يحيط القارىء علماً بكل ما وصل إليه العرب من الحَضارة لا بدّ من ذكر كلمة عن اصل العرب ومواطنهم وأقسامهم تكون تمهيداً لما سنطلعهُ عليهِ في ابواب هذا الكتاب وفصولهِ عن الحضارة العربيّة المنشودة .

اصل العرب

اصل العرب من الأمم الساميّة نسبةً الى سام بن نوح . فالأمم الساميّة كانت العبرانية والفينيقيـة والاشورية والبابلية والحبشية والسريانية والعربية .

اما بلادهم فكانت على رأي اصحاب التوراة في « مـا بين النهرين » ومنه نزحت القبائل الساميّة وتفرّقت في الارض .

فرحل العبرانيون الى فلسطين . والاشوريون الى العراق . والبابليون والسريان الى الشام . والاحبـاش الى افريقيـة . والفينيقيون الى شوطىء البحر المتوسط . والعرب الى شبـه جزيرة العرب .

الفينيقيون : جيلٌ عربيّ هبط شواطىء البحر المتوسط من نجد العربية ، والحضارة الفينيقية تمثّل مرحلة من مراحل تاريخنا القديم .

البحر المتوسط : بحرٌ عربيٌّ . وقد سمّي قديماً بحر العرب . مياهُهُ تروي سواحل لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش والاندلس ، حيث ازدهرت

الحضارة العربية ، فكانت حضارة العالم المتمدن .

اللبنانيون : عرب ولدوا على شاطىء البحر المتوسط ودرجوا أحداثاً على رماله واستحمّوا في مياهه وغرفوا من ينابيع الثقافة والحضارة اليونانية. فعرّبوا كتب جالينوس في الطب. وسقراط في الحكمة. وارسطو في الفلسفة . وايساغوجي في المنطق . وظلت مادة المعرفة الانسانية عندهم عصوراً مديدة حتى نبغ فيها المؤلفون والشرّاح فملأوا المكاتب بنتاج قرائحهم .

شبه جزيرة العرب :

موقعها : في الجنوب الغربي من قارة اسيّا .

حدودها : غرباً البحر الاحمر وصحراء التيه المتصلة بترعة السويس .

شرقاً الخليج الفارسي .

جنوباً بحر عُمان الذي هو قسم من بحر الهند .

شمالاً الصحاري الممتدة بين بلاد الشام والفرات .

منشأ العرب وموطنهم : لقد اجمع السواد الأعظم من المؤرخين الثقات على ان منشأ العرب وموطنهم كان قديماً في بلاد اليمن مهد الحضارة العربية الواقعة في الجنوب الغربي من شبه جزيرة العرب ومنها امتدّوا الى سائر البلدان . وقد اطلق الجغرافيون الاقدمون اسم اليمن على كل بلاد العرب الجنوبيّة .

أقسامهم وأنسابهم : يقسم العرب من جهة انسابهم القديمة الى قسمين كبيرين : قحطان وعدنان .

فالعرب القحطانية هم عرب الجنوب . كانوا اصحاب ملك واسع عامر . وبقيت دولتهم الى اواخر القرن السادس للميلاد . وكانت لغتهم الحميَريّة فانقرضت وصارت السيادة الى ابناء عمهم العدنانيين سكان الشمال . والعرب العدنانية منهم الحَضَر سكان المدن ومنهم البادية الرحّل سكان الخيام .

وكانت لغتهم الشعر الجاهلي . غير انهُ لم يكن لهم آثار مخطوطة بل ان ما وصل إلينا من آدابهم وحضارتهم هو ما نقلهُ الرواة والحفظة في صدر الاسلام . اما قبائلهم فلم تتبع في نطق العربيـة مذهباً واحداً . انما اللسان الذي غلب جميع الالسنة العربية هو لسان قريش لأنّ بهِ كُتب القرآن الشريف .

اقسام قبائل العرب الجاهلية

تُقسم قبائل العرب في الجاهلية الى ثلاثة اقسام :
العرب العاربة . العرب المتعرّبة . العرب المستعربة

١ – العرب العاربة او العرباء

ويقال لهم ايضاً : البائدة والخالصُ الاولون . سُمُّوا كذلك لانهم جميعهم بادوا اي هلكوا . ولم يبقَ من نسلهم احدٌ . وقد ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم . وقد كانوا شعوباً وقبائل كثيرة . والمتفق عليهِ انهم تسع قبائل من ولد إرَم بن سام بن نوح وهم : عَاد وثَمُود وطَسْم وجَدِيس وجُرْهُم وأَميم وعَبيل وَوَبارِ وعمليق[1]، وكانوا اقدم الامم بعد قوم

---

١ عمليق هو الذي نُسبت اليه العمالقة الذين منهم مَن فتحوا مصر باسم « الشاسو » البدو او الرعاة، ويسميهم اليونان « هكسوس »، وكان لهم دولتان كبيرتانِ الاولى في العراق والثانية في مصر. وبعد ان استولوا على مصر ومكثوا بها عدة سنين مالوا الى حضارة اهلها وتدينوا بدينهم واستبدلوا القسوة بالشفقة على الرعية واسسوا مدارس للتعليم والتهذيب حتى بلغوا اقصى درجة من التمدن والحضارة والعمران . وادى بهم الامر الى ان صاروا ملوكاً حقيقيين وفراعنة اصليين .

نوح واعظمهم قدرةً واشدّهم قوة ، انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لمّا زاحمهم فيها بنو حام. وكان لكل قبيلة ملوك وآطام وقصور الى ان تغلّب عليهم بنو يعرب بن قحطان. وكانت مساكنهم في اليمامة من جزيرة العرب[1] .

وجاء في بعض التواريخ ان اشهر القبائل البائدة هي عاد وثمود وطسم وجديس ولم يروَ عن غيرها شيءٌ من الاخبار انما ذُكرت وبارِ مع عاد في قول الشاعر :

ألم تروا إرَماً وعاداً أودى بها الليلُ والنهارُ
ومرَّ دهرٌ على وَبارِ فهلكت جهرةً وباروا

---

١ على اني لم ارَ اسقم من تاريخ هذا القسم في العصور القديمة لان حقائق اخبارهم وآثارهم مستترة وراء حجابٍ من الشك لعدم وجود مصدر تاريخي يوثق به . وعندي انه كما كانت اخبار اليونان والفرس قبل تاريخهم الحقيقي اساطير لا اساس لها كذلك هي اخبار العرب البائدة قبل فجر القرن الثامن للميلاد (اي قبل فجر التاريخ الحقيقي للعرب) ويرجع هذا الغموض في تاريخهم الى جهلهم الكتابة اذ ذاك .

لكن بكثرة البحث والتنقيب توصل علماء التاريخ الى تسطير البعض من حقائق اخبارهم . ولقد تنبهنا في بحثنا عن حضارة واخبار هذه القبائل القديمة التي هلكت ما رواهُ المؤرخون واتفق نصُّهم عليه ، فاثبتناهُ كما ورد في مؤلفاتهم لا سيما في كتاب الاغاني الجامع لشتات اخبار العرب .

عاد الاولى : هي قبيلة عاد بن عوص بن آرام بن سام بن نوح . وكانوا يسكنون الاحقاف ما بين عمان الى حضرموت . وكانوا يعبدون الاوثان فارسل الله اليهم نبيّاً اسمهُ «هود» فلما رأى هود فسادهم نهاهم وانذرهم بسوء مصيرهم فلم يمتثلوا امرهُ ولم يسمعوا لكلامهِ ، حينئذٍ اهلكهم الله الاّ مَنْ آمن بهود. وفي ذلك يقول مرثد بن سعد احد مَنْ آمن منهم بهود :

عصَت عادٌ رسولَهُمُ فأمسوا
عطاشاً لا تبلُّهُمُ السماءُ

لهم صنمٌ يقالُ لهُ صمودٌ
يقابلهُ صداهُ والهباءُ

فبصَّرَنا الرسولُ سبيلَ رشدٍ
فابصَرْنا الهُدى وخلا العَماءُ

عاد الثانية : ومن هؤلاء نشأت عاد الثانية التي يزعمون ان لقمان الملقب بذي النسور هو أحد ملوكها ، وهو الذي بنى سد مأرب المشهور، والى قدميتها يشير ابو العلاء المعريّ بقولهِ :

صاحِ هذي قبورنا تملأُ الرحبَ
فأين القبورُ من عهد عادِ؟

وذكر ابو الفداء في كتابهِ ج ١ ص ١٠٣ ان جميع ما ذكرهُ الاخباريون عن عاد مضطرب لا يصح التعويل عليه .

ثمود : هي قبيلة جاشر بن آرام بن سام، سكنوا اولاً في اليمن ثم طردهم منها حِمْيَر بن عبد شمس الملقب بسبأ ، فنزلوا في الحِجر من الحجاز المعروفة اليوم بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحج الشامي الى مكّة . وصار ذلك مثلاً يُضرب في تفرّق القوم فيقال : « لعبت بهم ايدي سبأ . » وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ويعبدون الاوثان راتعين بارغد عيش حتى كفروا وبطروا فارسل الله اليهم نبيّاً اسمهُ صالح يدعوهم الى سواء السبيل فلم يؤمنوا به ولم يطيعوهُ فابادهم الله عبرةً لغيرهم. قال المتنبي :

انا من أُمّةٍ تدارَكها اللهُ
غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

وقال فيهم حتاف بن عمرو :

كانت ثمود ذوي عزٍّ ومكرمةٍ
ما ان يضام لهم في الناس من جارِ

ما يرهبونَ من الاعداء حولَهُمُ
وقعَ السيوف ولا نزعاً باوتارِ

فـأهلكوا ناقـةً كانت ارجـهم
قـد انذروهـا وكانوا غير أنـذارِ

نادوا قداد ولحـم السَقْب بينهُـم
هل للمجول وهـل للسقب من نارِ؟[1]

لم يرعَيَـا صالحـاً في عَقر ناقتهِ
وأخفروا العهـد هذياً ايّ إخفـارِ

فصادفوا عنـدهُ من ربِّـهِ حرساً
فشدّخوا رؤسهم شدخاً باحجـارِ

طسم : قبيلة من ولد لود بن سام .

جديس : من ولد جاشر المذكور. كانت مساكنهما في اليمامة وهي اذ ذاك اخصب البلاد رزقاً وعمراناً . وكانت السيـادة فيهما لطسم. وظلوا على ذلك برهةً من الزمن الى ان انتهى الملك الى رجلٍ فظٍّ غليظ القلب غشومٍ فاجر يدعى عمليقاً سامَ جديس الذلّ والهوان فوقعت بينهما حروبٌ كانت الدائرة فيها على ملك طسم وقومهِ فأفنوهم عن آخرهم . وسبب ذلك ان امرأةً من جديس تُدعى « هُزيلة » كان لها زوج يقال له « ماشق » فطلّقها

---

١ السقب : ولد الناقة .

واراد ان يأخذ ولدها منها فخاصمته الى عمليق ملك طسم وقالت: يا ايها الملك، اني حملته تسعاً ووضعته دفعاً وارضعته شفعاً حتى اذا تمت اوصاله وحنا فصاله اراد أن يأخذهُ مني كرهاً ويتركني من بعده وَرَهاً[1]. فقال لزوجها: ما حجتك؟ قال: حجتي ايها الملك اني قد اعطيتها المهر كاملاً ولم أصب منها طائلاً الاّ وليداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً. فامر الملك بالغلام ان ينزع منهما جميعاً ويجعل في غلمانه، وقال لهزيلة: ابغيه ولداً ولا تنكحي احداً واجزيه صفداً[2]. فقالت هُزيلة: اما النكاح فانما يكون بالمهر. واما السفاح فانما يكون بالقهر. وما لي فيهما من امر.

فلما سمع عمليق ذلك امر ان تباع هي وزوجها فيعطى زوجها خمس ثمنها وتعطى هزيلة عشر ثمن زوجها فانشأت تقول:

اتينا اخا طسمٍ ليحكم بيننا
فانفذ حكماً في هُزيلة ظالما

لعمري لقد حُكّمتَ لا متورّعاً
ولا كنتَ فيما يُبرم الحكمُ عالما

ندمتُ ولم اندم واني بعثرتي
وأصبح بعلي في الحكومة نادما

---

١ الوَرَه: الخرق في كل عمل.
٢ الصَفَد: القيد.

فلما سمع عمليق قولها اغتاظ وزاد في الظلم وجعل سُنَّته ان لا تُهدى بكرٌ من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها قبلهُ ثم يدخل زوجها عليها بعد ذلك . فلقوا من ذلك بلاءً وجهداً وذلاً. ولم تزل تلك حالتهم حتى كانت آخر امرأة لتُفتذها حكم عمليق امرأة تسمّى «عُفَيرة» خرجت الى قومها بحالة مزعجة ومنظر بشع وذلك بعد أن أساء إليها عمليق ووجأها بحديدة على رأسها فادماها ، فوقفت على اخيها الاسود بن غِفار وهو قاعد في نادي قومهِ وقد رفعت ثوبها عن عورتها وقالت تحرّض قومها فيما اتى إليها :

لا أحدٌ اذلُّ من جديسِ
أهكذا يُفعل بالعروسِ؟

يرضى بهذا يا لَقومي حرٌّ
هذا وقد أُعطي وسيقَ المَهْرُ

لَخَوضهُ بحر الردى بنفسهِ
خيرٌ له من فعل ذا بعرسهِ

ثم انشدت هذه الأبيات تثير نخوة ابناء قومها وتستنهضهم في نبذ هذا العار عن كاهلهم :

أيجملُ ما يؤتى الى فتياتكم
وأنتم رجالٌ فيكمُ عدد الرمل ؟

أيجمل تمشي في الدماء عُفَيرةٌ
صبيحة زُفَّت في العشاء الى بعلِ ؟

ولو اننا كنّا رجالاً وكنتمُ
نساءً لكنّا لا نقرُّ بهذا الفعلِ

فموتوا كراماً أو أميتوا عدوَّكم
ودبُّوا لنار الحرب بالحطب الجزل

وإلاّ فخلُّوا بطنها وتحمّلوا
الى بلدٍ قفرٍ وموتوا من الهزل

فلَلْبَينُ خيرٌ من تمادٍ على أذى
ولَلموتُ خيرٌ من مقامٍ على الذلّ

وإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هذهِ
فكونوا نساءً لا تُعاب من الكحل

ودونكمُ طيب العروس فانما
خُلقتم لأثواب العروس وللغسل

فبعداً وسحقاً للذي ليس دافعاً
ويختالُ يمشي بيننا مشيةَ الفيحل

فلما سمع اخوها الاسود ذلك وكان سيداً مطاعاً قال لقومه: يا معشر جديس، ان هؤلاء القوم ليسوا باعز منكم في داركم الا بما كان من ملك صاحبهم علينا وعليهم، ولولا عجزنا واذعاننا ما كان له فضلٌ علينا، ولو امتنعنا لكان لنا منه النَّصَف، فأطيعوني فيما آمركم به فانهُ عز الدهر وذهاب ذل العمر واقبلوا رأيي. فقالوا: نحن لقولك سامعون ولرأيك متبعون ولكن القوم اكثر منا عدداً واشد قوة. قال: فاني اصنع للملك وليمةً ثم ادعوهم لها جميعاً، فاذا جاؤوا يرفلون بالحُليّ والحلل وجلسوا على المائدة وهم على غير حذرٍ منا اخذنا سيوفنا وقتلناهم. فقالوا: نفعل. فدبر الاسود الحيلة واولم الوليمة وجعلها بظاهر البلد. وخبّأت قومه بسيوفهم في الرمل. ثم دعا عمليقاً وسأله ان يتغدى عنده هو واشراف مملكتهِ فاجابهم الى ذلك وخرج اليهِ مع قومهِ واهلهِ يرفلون في الحلي والحلل، حتى اذا اخذوا مجالسهم ومدوا ايديهم الى الطعام اخذت جديس سيوفهم من تحت اقدامهم وشدّ الاسود على عمليق فقتلهُ وكل رجلٍ منهم على جليسهِ حتى اماتوهم، فلما فرغوا من الأشراف شدوا على السفلة فلم يدعوا منهم احداً. فقال الاسود في ذلك:

ذوقي ببغيك يا طسم مجلّلة
فقد اتيت لعمري اعجب العجبِ

إنّا اتينا فلم ننفكّ نقتلهم
والبغي هيّج فينا سورة الغضبِ

ولن يعود علينا بغيهم ابداً
ولن يكونوا كذي انفٍ ولا ذنَبِ

وان رعيتم لنا قربى مؤكدةً
كنا الاقارب في الارحام والنسبِ

ثم ان بقية طسم لجأوا الى حسّان بن تبّع الحميري ملك اليمن حينئذٍ واستصرخوا به واستنصروهُ فاجاب دعوتهم وهمّ بجيشهِ الى جديس، فلما كان حسّان في وسط الطريق تقدم اليه رجل من طسم يُدعى رَباح بن مُرّة وهو اخو زرقاء اليمامة فقال: ان لي اختاً تسمّى حَذَامِ متزوجة في جديس ليس في الارض ابصَر منها وهي تبصر الراكب من مسير ثلاثين ميلاً وانا اخاف ان تنذر القوم بك فتأمر كل واحدٍ من اصحابك ان يقتلع شجرة من الارض فيجعلها امامهُ ثم يسير. فامر حسّان بذلك ثم ساروا. ولما كان آخر النهار اشرفت الزرقاء من منظرها فقالت: يا جديس،

لقد سارت اليكم الشجر . فقالوا : ما ذاك ؟ قالت : قد اتتكم الشجر او اتتكم حِمْيَرَ . فاستهانوا بقولها فقالت من الرجز :

اقسم بالله لقد دبّ الشجرْ
او حِمْيَرٌ قد اخذت شيئاً يُجَرّْ

فلم يصدقوها فقالت :

احلف بالله لقد ارى رجل
ينهش كتفاً او يخصف النَعَل

فلم يصدقوها وكذّبوها وغفلوا عن اهبة الحرب. ففي ذلك تقول :

اني ارى شجراً من خلفها بشرٌ
فكيف تجتمع الاشجار والبشرُ؟

ثوروا باجمعكُمْ في وجه اولهم
فانّ ذلك منهم فاعلموا ظفَرُ

فلم يصدقوها ايضاً ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان بجيوشه واعمل فيهم السيف حتى هلكوا جميعاً الاّ رئيسهم الاسود فانه نجا وفرّ هارباً نحو جبل طيء وكان سيد طيء اذ ذاك أُسامة بن لُؤَيّ. ولما علم اسامة بمجيء الاسود الى طيء ارسل ابنهُ الغوث

ليقتلـهُ فقتله[1] وبذلك تمت ابادة طسم وجديس وانقرضت دولتهما ، وفيهما قالت الامثال : «انفر من طسم عن جديس.»

---

١ كان السبب في معرفة اسامة بمجيء الاسود انه لما هرب الاسود واقام بجبل طيء كانت طيء تسكن الجُرُف من ارض اليمن . وكان سيدهم يومئذٍ اسامة بن لُؤَي بن الغوث ، وكان الوادي مسبعة وهم قليل عددهم . وقد كان ينتابهم بعيرٌ في ازمان الخريف ولم يُدرَ اين يذهب ولم يروهُ الى قابلٍ . وكانت الازد قد خرجت الى اليمن ايام العَرِم فاستوحشت طيء لذلك وقالت : قد ظعن اخواننا فصاروا الى الارياف. فلما همّوا بالظعن قالوا لاسامة: ان هذا البعير يأتينا من بلد ريفٍ وخصب وانا لنرى في بعرهِ النوى فلو اننا تعهّدناه عند انصرافهِ فشخصنا معه لكنا نصيب مكاناً خيراً من مكاننا هذا . فاجمعوا امرهم على ذلك . فلما كان الخريف جاء البعير فاختلط في ابلهم فلما انصرف احتملوا واتبعوهُ يسيرون بسيرهِ ويبيتون حيث يبيت حتى هبط على الجبلين (وهما أجأ وسلمى) فقال اسامة :

جعلت طريفاً كحبٍّ يبسا لكل قومٍ مصبح ومسى

(وطريف هنا اسم الموضع الذي كانوا ينزلون به)

فهجمت طيء على النخل في الشعاب وعلى مواشٍ كثيرة واذا هم برجلٍ في شعبٍ من تلك الشعاب وهو الاسود بن غفار فهالهم ما رأوا من عظم خلقه وتخوّفوهُ وقد نزلوا ناحيةً من الارض واستبروها هل بها احد غيره فلم يروا . فقال أسامة لابنٍ له يقال له الغوث : اي بنيّ ، ان قومك قد عرفوا فضلك عليهم في الجَلَد والبأس والرمي ، فان كفيتنا هذا الرجل سدت قومك آخر الدهر وكنت الذي انزلتنا هذا البلد . فانطلق الغوث حتى اتى الرجل فكلّمهُ وسأله فعجب الاسود من صغر خلق الغوث فقال له : من اين اقبلتم؟ قال : من اليمن. واخبره خبر البعير ومجيئهم معه وانهم رهبوا ما رأوا من عظم صغرهم عنه وشغلوه بالكلام فرماه الغوث بسهمٍ فقتله . واقامت طيء بالجبلين بعده ، فهم هنالك الى اليوم .

٢ ـ العرب المتعربة

هم بنو قحطان بن عابر بن سام بن نوح . وقد سموا بذلك لأنهم تعربوا اي اقتبسوا لغتهم من العرب العرباء (البائدة) وكانوا معاصرين لهم فسكنوا البادية معهم وتخلّقوا بأخلاقهم غير انهم ظلّوا مجتمعين في مجالات البادية بعيدين عن رتبة الملك فانتشرت في أرض الفضاء فضائلهم وتعدّدت في جو القفار افخاذهم وعشائرهم . وقد كانوا على حظٍّ من العلوم والآداب وقدمٍ راسخة في المدنية وأصل عريق في الحضارة والتمدن فسكنوا المدن وأسّسوا الممالك . وكانت دولتهم في اليمن واسعة الاطراف شديدة البطش ومن اعلى الدول يداً وصولة ، كثيرة الغنى بالمعادن الثمينة والأحجار الكريمة والأطياب ونحوها .

وكان بنو قحطان يتكلمون أولاً بلسان أهل العراق الاصليين وهو اللسان الكلداني فتعلّموا العربية من العرب العرباء . واول من نطق بالعربية منهم يعرب بن قحطان . وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت يفخر على العدنانيين :

تعلّمتُمُ من منطق الشيخ يعرب
أبينا فصرتُم معربين ذوي نفرِ

وكنتم جميعاً ما لكم غير عجمةٍ
كلام وكنتم كالبهائمِ في القفرِ

وأشهر بني يعرب عبد شمس الملقب بسبإٍ وهو أبو جميع قبائل اليمن وهو الذي بنى مدينة مأرب وسدّها الشهير وبنى « عين شمس » باقليم مصر وهي المعروفة عندنا اليوم « بمصر الجديدة » .

سئل النبي مرةً عن سبإٍ ما هو أبلدٌ ام رجلٌ ام امرأةٌ فقال : بل رجلٌ وُلد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام اربعة . أما اليمانيون : فكندة ومذحج والازد وانمار وحمير والاشعريون. واما الشاميّون : فلخم وجذام وغسان وعاملة .

ولقد كان السبإيّون في نضارة من العيش وسعة من الرزق ، وكانت ارضهم من أرفه البلاد وأخصبها ، وكانت مدافع للسيول المنحدرة بين جبلين هناك فضُرب بينهما سدّ عظيم بالصخر والقار يحبس سيول العيون والأمطار حتى يصرفوه من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون اليه في سقيهم . ويعرف هذا السد «بسد مأرب» وهو لا يقلُّ عن خزان اصوان في مصر ضخامة ان لم يفقْه .

وفي بعض الأخبار انه انفجر فجرى السيل العَرِم وغمر الأراضي التي حوله ، فتفرّق اهل سبإٍ وسارت كل طائفة منهم الى جهةٍ حتى ضُرب بتفرقهم المثل فقالوا : « تفرّق القوم ايدي سبا » ، اي تشتّتوا . قال الأعشى :

وفي ذاك للمؤتسي اسوةٌ
ومأرب عفّى عليها العَرِمْ

رخامٌ بنتْهُ لهم حِمْيَرٌ
إذا جاءَ موّارُهُ لم يَرِمْ

فأروى الزروعَ وأعنابها
على سعةٍ ماؤُهُمْ اذ قُسِمْ

فصاروا أياديَ ما يقدرونَ
منهُ على ثوبِ طفلٍ قُطِمْ

وأشهر شعوب حمير بالحضارة والتمدن التبابعة ملوك اليمن ومنهم الاذواء والاقيال أهل العز والمنعة الذين دوخوا الامم وفتحوا الأقطار .

وفي بأسهم الشديد ومنعتهم يقول دعبل بن علي الخزاعي :

منازل الحي من غمدانَ فالنضَدِ
فمأربٍ فظفارِ الملك فالجَنَدِ

لم يدخلوا قريةً إلاّ وقد كتبوا
بها كتاباً فلم يدرسْ ولم يَبِدِ

بالقيروانِ وباب الصين قد زبروا
وباب مروَ وباب الهند والصُغُدِ

فالاذواء : جمع ذو. من قولهم ذو جَدَن وذو يَزن . وهم حكام البلاد الأصليون . ومنهم نبغ الملوك الذين أسسوا الدول. وقد جمع نشوان بن سعيد الحِميري بعضَهم في قصيدته الحِميريّة

المشهورة . والاذواء فيها طبقتان : طبقة سمّاها المثامنة وهم ثمانية اذواء كانوا اقوياء ناهضوا حِمير في أيام دولتهم . والطبقة الثانية : اذواء مستقلّون . أما الاذواء المثامنة فقد ضمّنهم الحميري في هذه الأبيات : أين المثامنة الخ .

ومن حمير ايضاً قضاعة[1] التي كانت مساكنهم ومراعي انعامهم جَدّة من شاطىء البحر الأحمر فما دونها شرقاً الى منتهى «ذات عرق» وهي الحد بين نجد[2] وتهامة الى حَيْز الحرم من السهل والجبل ، وهي عدة قبائل .

---

١ قضاعة هي اول من نزح من قبائل مَعَدّ . وكان السبب في نزوحها حرباً وقعت بينها وبين ربيعة بسبب فتاة ربيعية عشقها رجل قضاعي من بني نهد وانتصرت مضر واياد وانمار لربيعة وانتصرت عك لقضاعة فدارت الدائرة على قضاعة فأجلوا عن أماكنهم وتيّموا نجداً .

٢ نجد هي أطيب أرض في جزيرة العرب ، ولذلك نرى الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكرها ويترنمون بريّاها وريّا عطرها .

قال الشاعر :

اقولُ لصاحبي والعيس تهوي ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتّعْ من شميم عَرار نجدٍ ... فما بعد العشيّةِ من عَرار

وقال ابن الدمينة الخثعمي :

ألا يا صَبا نجدٍ متى هجتِ من نجدِ ؟ ... لقد زادني مسراكِ وجداً على وجدي
لقد زعموا ان المحب اذا دنا ... يُملُّ وان النأي يشفي من الوجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا ... على انّ قربَ الدار خيرٌ من البعدِ
على ان قرب الدار ليس بنافعٍ ... اذا كان من تهواهُ ليس بذي ودِّ

ومن القحطانيين ايضاً بنو كهلان بن سبإ وهي عدة قبائل أيضاً منها :

الازد — وخثعم — وبُجَيلة — وهمدان — وكندة — ومِذحِج — وطيء — ولخم — وجذام — وعاملة .

ويتفرّع من الازد قبائل الاوس والخزرج انصار النبي — وخزاعة — وبارق — وثمالة — ودوس — وبنو لهب — وغسّان ومنهم بنو جفنة رهط الملوك بالشام . قال حسان بن ثابت :

إمّا سألتَ فانّا معشرٌ نُجُبٌ
الازد نسبتُنا والماءُ غسّانُ

وقصارى القول ان مملكة سبإ كانت مضرب الأمثال في العظمة والقوة ثم سقطت وقام مقامها دولة حمير . وهذه فتحت الفتوح ثم سقطت أيضاً . وبسقوطها انتهى امرُ دول الجنوب القحطانية . وأصبحت جزيرة العرب كلها تابعة لدول الشمال العدنانية .

هذا ملخص عن القبائل اليمانية من ابناء قحطان. وقد اتصل مجدهم في الجاهلية بمجدهم في الاسلام . قال عمر بن الخطاب : مَن اجود العرب ؟ قالوا : حاتم طيء . قال : فمن فارسها ؟ قالوا : عمرو بن معدي كرب . قال : فمن شاعرها ؟ قالوا :

امرؤ القيس بن حجر. قال: فأيُّ سيوفها اقطع؟ قالوا: الصمصامة (سيف عمرو بن معدي كرب) قال: كفى بهذا فخراً لليمن!

وقال ابو عبيدة: ملوك العرب حمير. ومقوالها (وهو دون الملك الأعلى) غسان ولخم. وعددها وفرسانها الازد. ولسانها منحجر. وريحانتها كِندة. وقُريشها الانصار.

٣ — العرب المستعربة

ويُقال لهم العدنانيُّون نسبةً الى عدنان وهو اول شعب اشتهر من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل. وسُمُّوا مستعربة لامتزاجهم بالقحطانيين لغةً ونسباً. او لصيرورتهم عرباً بعد ان كانوا اعجاماً كقولهم: استنسر البغاث، اي صار نسراً، واستحجر الطين، اي صار حجراً.

قيل قدم عليهم الجرهميون فأقاموا معهم وتناسلوا. وتعلَّم اسماعيل منهم العربيَّة بعد ان كان لسانه عبرانياً. غير ان سلسلة هذا النسب من بعد اسماعيل محاطةٌ بالشكوك والريب الى عدنان الذي منه النسب الصحيح وهو قبائل عديدة توطنوا الحجاز ومنه تفرقوا في نجد والعراق واليمامة وبادية الشام وكانوا كلهم رحَّالة يسكنون البادية إلاَّ «قريشاً» فقد كانوا حضراً يسكنون المدن كمكَّة والمدينة وجدَّة وغيرها. وكانت دولهم

تارةً تحت حماية الروم وطوراً تحت حماية الفرس الى ان جاء المسلمون واستولوا عليهم .

واعظم القبائل العدنانية قبيلة « مَعَدّ » .

ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها .

ويتفرّع من معد « نِزار » التي كان فيها العظمة والقوة ولها الفضل الأعظم على العرب لأن منها جاءَ النبي .

واشتهر من اولاد نزار اربعة شعوب : ايَاد — وأَنْمار — ورَبيعة — ومُضر .

فسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ .

وسكنت ربيعة العراق ايضاً .

وسكنت مضر الحجاز وهم اهل الكثرة والغَلَبَة وكان لهم رئاسة البيت الحرام بمكّة .

ومن مضر تشعبت قبائل **كنانة وقريش** .

وكانت قريش اشهر قبائلهم وقد بلغت مبلغاً عظيماً من الشرف وعلو الهمة . وكان لها نوع من السلطة والمشورة على جميع قبائل العرب .

وتشعبت قريش الى ٢٥ بطناً اشهرهم بنو عبد مناف . وكان القائم بأمرهم بنو هاشم رهط النبي . وبهِ شرفت بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها . وإليك بياناً في قبائل العدنانيين :

جميع اولاد مضر يرجعون الى : خِنْدِف وقَيْس . وهما شعبان عظيمان ولكلٍّ منهما بطون .

بطون بني خندف

من خندف هُذَيل — واسد — والهُون — وضبَّة — ومُزَينة — وصُوفة — وكنانة التي من قبائلها قُريش — والدُّوءَل — والرباب التي منها عديّ — وتَيْم — وعِكْل — وثور — وتميم : منهم مُقاعس — ومِنْقَر — وقُرَيع — وبُهْدلة — وبنو انف الناقة — والبَراجم — ويربوع ومنهم رياح وغـــدانة — وثعلبة — وكُلَيب — والعَنْبر .

بطون بني قيس

وتفرعت قيس الى عَدْوان — وسُلَيْم — وغَطَفان — وأعْصُر — وهَوَازن .

وتفرعت غَطَفان الى عَبْس — وذُبْيان — وفَزارَة — ومُرَّة . وتشعَّبت اعصر الى غَنى — وباهِلَة — وسُلَيْم .

وتفرَّعت هَوَازن الى سعْد — ونَصْر — وجُشَم — وثَقيف — وعامر — وسَلول .

وتفرّع من عامر بنو هلال — وبنو نُمَير — وبنو كعب وهم ستة بطون منهم عَقيل — وبنو العَجْلان — وبنو قُشَير — وبنو جَعْدة — وبنو كلاب — وبنو جَعْفر .

بطون ربيعة

جميع ولد ربيعة يرجعون الى عَنْزة — وعبد شمس — والنَمِر — وتَغْلب — وبَكْر . وتشعّبت بكر الى عدة بطون منها : ضُبَيْعَة — ويَشْكُر — وعِجْل — وحَنيفة — وشيبان — وذُهْل — وقيس — واياد — وأَنْمار .

بطون قريش

قُرَيش هو الشعب العظيم في الجاهلية والاسلام . وهو من ولد النَضْر بن كنانة بن مدركة بن الياس بن مُضر . والنضر هو جماع قريش عند الفقهاء فلا يقال لأحدٍ من اولاد مَنْ فوقهُ قرشي . قيل سمّي بذلك للتقرّش وهو التجارة لأنهُ كان من اهل المتاجر الواسعة . وقيل تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس لدواب البحر لأنهُ كان من اهل الصولة والبأس الشديد .

وقد ولد لقُريش غالب والحارث ومُحارب .

فبنو الحارث وبنو محارب هم قريش « الظواهر » سُمّوا بذلك لأنهم سكنوا بظاهر مكة . وما سوى هذين من بطون قُريش يقال لهم «البطاح». وسموا بذلك لسكناهم ببطحاء مكة.

وولد لغالب لُؤَي. وولد للُؤَي عامر وسعد وخزيمة والحارث واسامة وكعب. ولكلٍّ منهم ولد ينتسبون إليه خلا الحارث.

وولد لكعب مُرّة وهُصَيْص وعدي. ولكل منهم بطون تُنسَب إليه .

وولد لمُرة كلاب وتَيْم ويقظة . ولكلٍّ منهم بطن ينتسب إليه .

وولد لكلاب قُصَيّ وزُهرة. ولكلٍّ منهما ولد ينتسبون إليه.

وولد لقُصَيّ وهو الذي جمع قريشاً وأثّل مجدهم عبد مناف وعبد الدار وعبد العزّى . وإليهم تنتسب بطون ثلاثة .

وولد لعبد مناف وهو صاحب الشوكة في قريش عبد شمس وهاشم والمطّلب ونوفل . ولكلٍّ منهم ولد ينتسبون إليه .

وولد لعبد شمس أُميّة ومنهم عثمان بن عفّان الخليفة الثالث. ومعاوية بن ابي سفيان اول خلفاء بني أُميّة. وربيعة . ولكل منهم ولد ينتسب إليه .

وولد لهاشم، عبد المطّلب . ولا يُعلم لهُ ولدٌ غيره .

وولد لعبد المطّلب عشرة بنين : عبدالله ابو النبي ، وهو

أصغرهم ، وحمزة والزُّبَـــير وأبو لَهَب وقَثَم والعبّاس وأبو طالب والمِقْوم وضِرار وحَجَل .

فائدة : ان هذا الجيل من العرب المستعربة اكثر عدداً من العرب المتعرّبة ، ولكنه بقي تحت سلطانها زماناً بما كان للعرب المتعرّبة من الملك السابق على العامر من جزيرة العرب وما حواليها ، وكثيراً ما حصلت بين الجيلين حروب كانت الغلبة فيها للعرب اليمانية . قال تبّع احد ملوكها :

لستُ بالتبّـع اليمانيّ ان لم تركضِ الخيل في سواد العراقِ
أو تؤدّي ربيعةُ الخرجَ قسراً لم تعقها موانعُ العُوّاقِ

ثم نشأت بعد حضارة الاسلام طبقة رابعة دعوها العرب المستعجمة اي الذين فسدت لغتهم على تمادي الأيام بسبب مخالطتهم غير العرب . وهم قبائل عظيمة وشعوب كثيرة يسكنون الخيام ويجولون في البراري . وأشهرهم قبيلة عنزة وصخر وسباعة وغيرها . وقد دخل المدن كثير من العرب وسكنوا حواضر البلاد بعد الاسلام واختلطوا بأهل البلاد الشامية والمصرية والمغربية حتى صار يُعَدُّ كل من تكلم العربية من اهل هذه البلاد عربياً .